في المغرب العربي

[إلى المجاهد العربي الكبير معالي الحاج]

•

قرأت اسمي على صخره
هنا ، في وحشة الصحراء ،
على آجرّة حمراء ،
على قبرٍ . فكيف يحسّ إنسانٌ يرى قبره ؟
يراه وإنه ليحارُ فيه :
أحيٌّ هو أم ميتٌ ؟ فما يكفيه
انْ يرى ظلّاً له على الرمالْ ،
كمئذنةٍ مُعفّرةٍ
كمقبرةٍ
كمجدٍ زال !
كمئذنةٍ تردّد فوقها اسمُ الله
وخطّ اسم له فيها ،
وكان محمدٌ نقشاً على آجرّة خضراء
يزهو في اعاليها ...
فأمسى تأكل الغبراء
والنيرانْ ، من معناه ،
ويركله الغزاة بلا حذاء
بلا قدمٍ
وتنزف منه ، دونَ دمٍ ،
جراح دونها ألم -
فقد ماتْ ...
ومتنا فيه ، من موتى ومن احياء .
فنحن جميعنا اموات .
انا ومحمد والله .
وهذا قبرنا : انقاض مئذنة معفّرةٍ
عليها يُكتب اسمُ محمدٍ والله ،
على كسر مبعثرةٍ
من الآجرّ والفخّارْ .
فيا قبر الاسى ، على النهار
ظلّ لألف حربةٍ وفيل
ولونُ ابرهة
وما عكسته منه يدُ الدليل ،
والكعبة المحزونة المشوهة .

***

قرأت اسمي على صخره ،
على قبرين بينهما مدى أجيالْ
يجعل هذه الحفره
تضمّ اثنين : جدّ ابي - ومحضُ رمالْ
ومحضُ نثارة سوداء منه ، استنزلا قبره -
وإياي ، ابنَه في موته والمضغةِ الصلصال .

***

وكان يطوف من جدّي
مع المدّ
هتافٌ يملأ الشطآنْ : « يا وديانا ثوري !
ويا هذا الدمُ الباقي على الاجيال
يا إرثَ الجاهير ،
تشظّ الآن واسحق هذه الاغلالْ !
وكالزلزال
هُزّ النيرَ ، او فاسحقه واسحقنا مع النير . »
وكان السهل يختال
بين عصائب الابطال ،
من زندٍ الى زندِ
ومن بندٍ الى بندِ .

إلهُ الكعبة الجبّارْ ،
تدوّع امس في ذي قار
بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثار .
إلهُ محمد وإلهُ آبائي من العربِ ،
تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار ،
وفي بافا رآه القوم يبكي في بقايا دار .
وابصرناه يهبط ارضنا يوماً من السحب :

جريحاً كان في احيائنا يمشي ويستجدي ،
فلم نضمد له جرحا
ولا ضحّى
له منا بغير الخبز والانعام من عبدِ !

***

واصوات المصلين ارتعاشٌ من مراثيهِ .
اذا سجدوا ينزُّ دمُ
فيسرع بالضماد فمُ :
بآياتٍ يغصّ الجرح منها خير ما فيه ،
تداوي خوفنا من علمنا انا سنحييه
اذا ما هلل الثوار منا : « نحن نفديه ! »

***

أغار ، من الظلام على قرانا
فأحرقهن ، سربٌ من جرادِ
كأن مياه دجلة ، حيث ولّى ،
تنمّ عليه بالدم والمداد .
أليس هو الذي فجأ الحبالى
قضاه ، فما ولدن سوى رمادِ ؟
وأنعل ، بالأهلّة في بقايا
مآذنها ، سنابك من جواد ؟
وجاء الشام يسحب في ثراها
خُطى أسدين جاعا في الفؤاد ؟
فأطعم أجوع الأسدين عيسى
وبلّ صداه من ماء العماد
وعضّ نبي مكة .. فالصحارى
وكل الشرق ينفرُ للجهاد ؟!
أعاد ، اليوم ، كي يقتصّ من أنّا دحرناهُ ؟
وان الله باقٍ في قرانا ، ما قتلناه ؟
ولا من جوعنا يوماً أكلناه ؟
ولا بالمال بعناهُ —
كما باعوا
إلـٰههم الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه ؟
كما أكلوه اذ جاعوا —
إلـٰههم الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ ؟

***

وفي باريس تتّخذ البغايا
وسائدهنّ من ألم المسيح
وبات العقمُ يزرع في حشاها
فم التنّين : يشهق بالفحيح
ويقذف ، من حديد في حمانا
جحافل كالفوارس ، دون روح
تجدّ وراء مكة في الصياصي
اقمناها ، ويثرب في السفوح

***

قرأت اسمي على صخره ..
وبين أسمين في الصحراءْ
تنفّس عالمُ الأحياء
كما يجري دمُ الاعراق بين النبض والنبضِ .
ومن آجرّة حمراءَ ماثلة على حُفره ،
اضاء ملامح الارضِ
بلا ومض
دمٌ فيها ، فسماها
لتأخذ منه معناها
لأعرف انها ارضي
لأعرف انها بعضي
لأعرف انها ماضيّ ، لا أحياه لولاها
واني ميّت لولاه ، أمشي بين موتاها .

***

أذاك الصاخب المكتظّ بالرايات وادينا ؟
أهذا لونُ ماضينا
تضوّأ من كوى « الحمراء »
ومن آجرّة خضراء
عليها تكتب اسمَ الله بقيا من دم فينا؟
أنبر من اذان الفجر ؟ ام تكبيرة الثوار
تعلو من صياصينا ..؟
تمخّضت القبور لتنشر الموتى ملايينا
وهبّ محمدٌ وإلـٰهه العربيّ والانصار :
ان إلـٰهنا فينا .

بغداد — بدر شاكر السيّاب